الطبيعة في شعر المتنبي

ملحق بعدد يونية سنة ١٩٣٤

من مجلة «أبولو»

وهي المحاضرة الثانية التي ألقاها الدكتور أحمد زكي أبو شادي

السكرتير العام لندوة الثقافة في نادي

نقابة الصحافة بالقاهرة

الطبيعة فى شعر المتنبى

— ٢ —

تناولتُ فى محاضرتى السابقة [1] الكلامَ العامَّ عن الطبيعة فى شعر المتنبى ، وقد مهَّدتُ لذلك بمقدمة طويلة لا غنًى عنها فى الصلة بين الشاعر الملهم والطبيعة ومنزلة المتنبى من ذلك . وقد قسَّمت شعر الطبيعة الى عشرة أقسام حسب أصول النقد الأدبى الحديث وجئت بأقرب النماذج الىَّ لكلٍّ من هذه الأقسام تسهيلاً لتفهُّمها وتقديرها . ثم استعرضتُ نماذج من أظهر شعر الطبيعة فى ديوان المتنبى ووضعته فى منزلته النقدية .

وفى هذه المحاضرة أواجه حضراتكم بعرض شامل للطبيعة فى شعر المتنبى جميعه مع تحليلٍ فنىٍّ لهذا الشعر على قدر ما يسمح به الوقت المخصَّص لهذه المحاضرة . وأملى أن تأذن محبتكم للأدب العربى

---

(١) انظر الملحق بعدد مارس سنة ١٩٣٤ من مجلة « أبولو »

بمتابعة هذه الدراسة التى أهديها الى روح ذلك العبقرى الفذّ .

* * *

يتمثّل جميع شعر الطبيعة البارز فى ديوان المتنبى فى نحو ثلثمائة بيت ، ويشوقنى كثيراً — ولعله يشوقكم كذلك — متابعة هذا الرُّوح فى أدب المتنبى منذ صباه لنرى كيف ترعرع ونضج وكيف كانت اتجاهاته ودلالاتها .

إنّ المتنبى ابن الطبيعة : فقد نشأ فى أحضانها إذ وُلد فى محلة كندة وهى ضاحية لمدينة الكوفة بالعراق واقعة فى غرب الفرات وتبعد عن بغداد جنوباً بمائة وأربعين كيلو متراً ، وقد اشتهرت ببساتينها ولا تزال مشهورة بها الى وقتنا هذا . وعلى مقربة منها الرهيمة التى أشار اليها المتنبى فى قصيدته الوصفية عند رجوعه من مصر ، وللرهيمة ما لكندة من الشهرة بجمال الطبيعة. فالمتنبى لم ينشأ نشأة بدوية فى أول أمره ، ولئن جاس خلال البادية بعد ذلك فى طفولته وبعض صباه ليستفيد ما استفاد من لغة فقد أقام بعد ذلك بين الحضر سنين ، فعوامل التفاعل فى تكييف مزاجه تكاد تكون متعادلة أو على الأقلّ لا يجوز أن يقال إن عنصر البداوة هو عنصر البيئة المتغلبة عليه ، فان الزمن الذى قضاه فى البادية

محدود ، وليست كندة ولا الكوفة من البادية . وقد أمضى صباه متنقلاً فى ربوع الشام الجميلة والتحق ببلاط سيف الدولة وهو فى الرابعة والثلاثين ، وقد عمّر الى ما بعد الخمسين ، فَفُرَصُ المدنيّة أمامه كانت كثيرة لتتغلب على جفوة البداوة ، لو صحّ أن هذه البداوة أثرت فى نفسه ذلك التأثير البليغ الذى يذهب اليه بعض النقاد . اما رأيي الخاص فهو أن المتنبي من طبيعته مزاجاً قوياً ناضج الرجولة منذ نعومة أظفاره ، وهذا المزاج مستقل الطابع يكاد ينزع بصاحبه الى التأله ، وتنبض ألفاظه بل حروفه بهذه الروح العاتية بحيث تضيع قوتها الساحرة اذا ما نُقلت الى لغة أخرى ، لأن قوة المتنبي الفنية لا تتمثل فى خياله ومعانيه فقط بل تتمشى فى نبرات ألفاظه بصورة مدهشة ، فنحسّ بأن خلفها نفسيةً شاذةً تحاول أن ترتفع فوق مستوى الآدمية وتعبر عن قوانين القدر كأنها منه وهو منها تعبيراً لا نزاع فى حتمه وصولته !

هذه النفس الجبارة المنقطعة النظير لا يمكن من الناحية الشعرية أن تكون صلتها بالطبيعة ضئيلة ، ولو أن دارسي الأدب العربي يعنون بالمراجع الأصلية أى بشعر المتنبي ذاته لما فاتهم الكلام على الطبيعة فى شعر المتنبي ولما ذهب بعضهم الى أن هذا الشعر لا قيمة له إذ أنه فى اعتبارهم متأثر بحياة البداوة وحدها .

لقد تغلغلت الطبيعة في جميع شعر المتنبي استعارة وتشبيهاً ووصفاً برغم اشتغاله بأمور الحياة العملية ، فما بالكم به لو أنه نال من هدوء البال مثل ما نال البحتري وأبو نواس ؟ وقد كان المتنبي فيلسوفاً اجتماعياً بطبيعته ، وزادته خبرته بالناس وبالايام صرامة فأتى في شعره بالعجب العجاب من مزج الوصف والتصوير بهذه الفلسفة ، فاذا ما أدخل روح الكفاح الحيوي في وصفه لبحيرة طبرية فليس معنى ذلك أنه متأثر بحروب البدو وحياتهم وانما معناه أن الرجل بصير بفلسفة الحياة فهو يمزجها بوصفه للطبيعة . وقد أشرت الى قوة الطبيعة وتأثيرها في نفوس عدد من الشعراء — أو نظرتهم اليها هذه النظرة — في القسم الثامن من أقسام شعر الطبيعة في محاضرتي السابقة . وهذه النظرة ليست خاصة بالمتنبي فكثيرون من أدباء الشرق والغرب نظروا مثل هذه النظرة الى الطبيعة وغيرهم نظر اليها عكسها ، وكثيرون جمعوا بين النظرتين حسب مناسباتهم النفسية . فلم يكن اللورد تنيسون مثلاً — وهو شاعر العرش في عهد الملكة فكتوريا — باليدوي المزاج حينما رأى الطبيعة « حمراء الناب والمخلب من الافتراس red in tooth and claw with ravine » وانما تلك هي نظرته الى فلسفة الحياة حينما كتب ذلك . ولا غبار على الشاعر اذا ما تبدلت فلسفته حسب الظروف والمؤثرات فهو قبل

كل شيء معبرٌ وجداني وشعره مرآة نفسه المتجاوبة مع عناصر الحياة .

لنطرح جانباً إذن نظريةَ تأثير البادية عليه تأثيراً كلياً ، ولنؤمن بأن أدب المتنبي انما هو أدب القوة والسرمان . أدب مَنْ يرى أن الدنيا لمن غلبَ . وأن هذا هو روح الحياة ، فتغلغل ذلك الى صميم شعره في جميع البيئات المختلفة التي امتزج بها . فالمتنبي لم يتعمد اغفالَ الطبيعة واسقاطها من شعره وانما شغلته عظائم الحياة العملية كما شغلته عن المرأة التي أحبَّها ، وما أحب المرأة البدوية لأنها بدوية بل لأنها تمثل الطبيعة الفطرية البعيدة عن التصنع كما يحبها كثيرون منا نحن الحضريين وأخصّ بالذكر أهل الفنون . واذا كان هذا يشير الى شيء فانما الى تطبُّع مزاج المتنبي بطابع الطبيعة الحرة القوية التي نشأ في أحضانها وافتتانه بعناصرها الجميلة ، وما الجفوة أو الصلابة التي في نفسه من أثر حياة البادية ، وانما هي من أثر ذلك التحرّر القويّ الذي يشعر به ابن الطبيعة المتعالي وقد رآها دائمة الصراع فتعلم منها قيمة الرمح والسيف والدم في حياة الانسان ومجده ، إذ أن لها نظير هذه الوسائل في بناء مجدها المتجدّد . وعندي انه سواء أقصد المتنبي الى البادية أم لم يقصد فطبيعة نفسه العاتية منذ صباه كفيلة بتلك النظرة المرّة الى الحياة وتقلباتها وأحداثها ، وهذا أمرٌ يتصل بعلم النفس قبل اتصاله بعلم الاجتماع .

من أول شعر الطبيعة الذى نظمه أبو الطيب قوله من قصيدة فى صباه يمدح محمداً بن عُبَيد الله العلوى المشطَّب واصفاً سرعة سيره وهو قاصد الى ممدوحه . وقد مهّد الى هذه الابيات بالكلام على ناقته :

أشدُّ عَصْفِ الرّياحِ يسبقُه ... تحتى من خَطوِهَا توأّدُها(1)

فى مثلِ ظهرِ المِجَنّ متّصلٍ ... بمثلِ بطنِ المِجَنّ قَرْدَدُهَا

مرتميات بنا الى ابن عُبَيـ ... ـدِ الله غيطانُها وفَدفدُها

تأملوا فى خيال المتنبي الفتى الشاعر الوصاف الذى يقول إن تمايُل ناقته فى أهون سيرها (وما يريد الاّ تمهله وسرعة عدوه) يسبق أشد عصف الرياح فى فلاة مثل ظهر الترس اجداباً ومثل بطن الترس أرضها المرتفعة لما يتناوبها من تلال ووهاد ، وأن غيطانها وفدفدها أى أراضيها المطمئنة والغليظة المرتفعة ترمى بنا الى هذا التوفيق فى السفر السريع ، وقد مزج هذه العاطفة بما حوله وتحته من مظاهر الطبيعة فى أبيات ثلاثة لاغير ! وهذه القدرة الوصفية والنظرة المستوعبة من فتانا المتنبي وهو لم يتجاوز العشرين

---

(1) توأدها : تمهلها . أنظر « شرح ديوان المتنبي » للبرقوقى ، ولعله أبرع الشروح العصرية .

من سنة لازمته طول حياته فى جميع مناحى شعره وفى نظراته العامة الى الحياة .

والمتنبي كغيره من الشعراء المطبوعين يلجأ دائماً الى الطبيعة يستمدّ منها ألوانه حتى فيما يبدو لنا أنه نظم صناعي محض، ففى نفس هذه القصيدة لا يفوته أن يقول فى ممدوحه وفى قريش :

شمسُ ضحاها ، هلال ليلتها درٌّ تقاصيرها زبرجدُها

وهى تشابيه طبيعية مألوفة ،ولكن المتنبي اللعوى منذ صباه ، الذى يبغض الثرثرة ويعشق الاستيعاب والتركيز والدّسامة ، قال عن ممدوحه فى بيتٍ فرد إنه بين قومه كالشمس فى النهار والهلال فى الليل والدّر والزبرجد فى القلادة ، أى هو أفضلهم وأشهرهم وبه زينتهم وفخرهم .

وترون هذه الأوصاف والتشابيه الطبيعية منبثّة فى جميع شعر المتنبي ، ولكن النقاد لا يبحثون عنها أو لا يلتفتون اليها وهيهات أن تجيء هى اليهم عفواً .... أليس هو القائل فى صباه :

شمسٌ اذا الشمسُ لاقتْهُ على فرسٍ

تردَّدَ النورُ فيها مِن تردُّدِهِ

فهو يقول فى ممدوحه هو شمسٌ اذا رأته الشمسُ وهو يجول

فى ميدانه على فرسٍ متردّداً تردُّدَ النور فى هيولى الشمس لأنه أضوأ منها فالشمسُ تستفيد منه النور ! وفى ظاهر البيت مبالغة سقيمة ، ولكن عناصر خياله تشعر باندماج شاعرنا فى الطبيعة وهو يَستحدث مثلَ هذا المعنى العجيب .

لم تكن للمتنبي قلةُ احتفالٍ بالطبيعة ، فحيثما دعته المناسبة أبدع فى وصفها أو فى الاندماج بها ، ولكن هذه المناسبة قلما وُجِدَتْ لأنه قضى حياته فى شغل شاغل بالمجد والسيطرة ومعارك السيادة . وبرغم هذا فله لفتاتٌ كثيرةٌ الى تشابيه طبيعية ، ولو كان من يصدف بفطرته عن الطبيعة لصدف عن هذه التشابيه . أليس هو القائل فى إحدى الغوانى :

غُصنٌ على نقوى فلاةٍ نابتٌ

شمسُ النهار تُقِلُّ ليلاً مُظْلِمَا

فيصف قامةَ الحبيبة بأنها غصنٌ نابتٌ على كثيبٍ رملٍ (يعنى ردفيها) ووجهُها شمسُ النهار تحمل من شعرها ليلاً مظلماً . ومع أن هذا البيت من التشابيه المبتذلة فله دلالته فى نفى تعلق المتنبى بالقوة والجبروت فى الطبيعة وانصرافه انصرافاً تاماً عما عدا ذلك وصفاً أو تشبيهاً ، وسنرى نماذج كثيرة مؤيدة لرأيى ، فهو القائل :

كم مَهمَهٍ قذَفٍ قلبُ الدليلِ به

قلبُ المُحِبِّ قضاني بعد ما مَطلا

عقدتُ بالنَّجمِ طرْفى فى مَفاوزهِ

وحُرَّ وَجهى بِحَرِّ الشمسِ إذْ أفَلا

انظروا فى هذه التشابيه والاستعارات الجميلة والألفاظ الشعرية المنتقاة حتى فى لفظ (قَذَفٍ) بمعنى بعيد بينما البيتان لا يصوّران الا حالة من أبسط حالات المسافر فى البيداء ، ولكن المتنبي لم ينس الطبيعة فى هذه الصورة ، واستعان بالطبيعة فى القصيدة نفسها تصويراً لجزع الفارّين أمام خيل ممدوحه فقال :

وضاقت الارضُ حتى كان هاربُهم

اذا رأى غيرَ شيءٍ ظنه رجُلاً !

وفى هذه الأبيات يرتفع المتنبي الى مستواه الشعرى العالى ويترفع عن التقليد الذى نلمحه فى مثل قوله : « يلوح بدرُ الدُّجى فى صحن غرّته » وقوله :

خريدةٌ لو رأتها الشمسُ ما طلعتْ

ولو رآهــا قضيبُ البانِ لم يَمِسِ

وقوله :

لو كانَ فيضُ يديهِ ماءَ غاديةٍ

عزَّ القَطا في الفيافي مَوْضعُ اليَبَسِ

ولو أن في هذا البيت لمحة من مبالغات المتنبي تبعده عن التقليد المحض . ولكن اذا اجتمعت العاطفة بالطبيعة في شعره ، سواء أكانت تلك العاطفة حباً أم بغضاً ، فهو كفيل بكل طريف ، مثل قوله في هجاء سِوار الديلمي :

ولا تُنكرا عَصْفَ الرِّياح فانها

قِرَى كلِّ ضيفٍ باتَ عند (سِوارِ)

يقول : لا تنكرا شدة هبوب الرياح فانها طعام من بات ضيفاً عند (سِوار) وهو رجل نزلوا في المسجد قرب داره فهبّت عليهم الرياحُ ولم يلتفت اليهم ولم يقرهم .

وهذه الطبيعة المنبثة في شعر المتنبي يمكنكم تتبّعها في أبيات كثيرة له منذ صباه الى كهولته فتجدونها ذات روح قوية واحدة في الوجدانيات وذات صبغة تقليدية في بعض مدائحه ، وهي لا تحتاج الى تعليق الا في بعض المواضع ، فروائعها الفنية ناطقة في غير بيان .

يقول فى سياق غزله :

حشاىَ على جمرٍ ذكىٍّ من الهوَى
وعيناىَ فى روضٍ من الحُسنِ ترتعُ
ولو حُمِّلتْ صُمُّ الجبالِ الذى بنا
غداةَ افترقنا أوشكتْ تتصدّعُ

ويقول :

فصيحٌ متى ينطق تجد كلّ لفظةٍ
أصولَ البراعاتِ التى تتفرّعُ
بكفٍّ جوادٍ لو حكتها سحابةٌ
لما فاتها فى الشرقِ والغربِ موضعُ
وليس كبحرِ الماءِ يشتقُّ قعرَهُ
الى حيث يفنى الماءُ حوتٌ وضفدعُ

فهو يعتمد على مادة الطبيعة من روض وجبال وسحابة وبحر لتلوين أمداحه ، أو لخلق أرضية لها ، أو لتصوير ظروفه وأحواله ، مثل قوله فى وصف العيس وسفره :

إذا الليـلُ وارانا أرتنـا خفافُـها
بقدح الحَصَى ما لا تُرينا المشاعلُ

كأنى مِن الوجناءِ فى ظهرِ موجـةٍ
رمَتْ بى بحاراً ما لهن سواحلُ

وفى هذين البيتين يتجلَّى خيـالُ المتنبى الجرىء فى أوصافه ، ولستُ أدرى ماذا كان يقول لو أنه عاش الى عصرنا فشهد السيارة والطيارة والراديو ؟ !

ومن هذا الوصف المفتنّ يسفّ حينما يقول :

ترنو الىَّ بعينِ الظبى مجهشةً
وتمسحُ الطَّلَّ فوقَ الوردِ بالعَنَمِ

ولـكنه الدليل المتـكرّر على لجوء المتنبى الى الطبيعة فى أوصافه المتسامية والمتدانية على السواء .

يقول أبو الطيب :

لولا ظباء عَـدِىٍّ ما شُغِفْتُ بهم
ولا بربربهـمْ لولا جآذرُهُ

وفى نفس قصيدة هذا البيت يقول :

دخلتها وشعاعُ الشمسِ متّقدٌ
ونورُ وجهك بين الخلقِ باهرُهُ
فى فيلقٍ من حديدٍ لو قذفتَ به
صرفَ الزمانِ لما دارت دوائرُهُ

ويقول :

قد حِرنَ فى بَشرٍ فى تاجه قمرٌ
فى درعهِ أسَدٌ تَدْمَى أظافِرُهُ

وفى كل هذا تدخل مادة الطبيعة . ومنها يستمدّ القول :

الى الثمرِ الحلوِ الذى طيءٌ له
فروعٌ وفحطانُ بنُ هُودٍ لها أصلُ

وقوله :

على سابحٍ مَوْجُ المنايا بنحرهِ
غداةَ كأنّ النبْلَ فى صدرهِ وَبَلُ

وقوله :

فرأيتُ قرنَ الشمسِ فى قمرِ الدُّجَى
متأوّداً غُصْنٌ به يتأوّدُ

وقوله :

قطَّعْتَهُمْ حسداً أراهم ما بهم
فتقطعوا حسداً لمن لا يَحْسُدُ

حتى انثنوا ولو انّ حَرَّ قلوبهم
فى قلبِ هاجرةٍ لذابَ الجَلْمَدُ

وقوله فى السيف المخضب بالدماء :

ريَّانُ لو قَذفَ الذى أسقيتَهُ
لجرى من المُهجاتِ بَحْرٌ مزبدُ

وقوله :

رأت وجهَ مَن أهوى بليلٍ عواذلى
فقلن نرى شمساً وما طلع الفجرُ

متى ما يُشِرْ نحو السماء بوجهه
تخرُّ له الشِّعْرَى وينخسفُ البدرُ

وقوله :

يجدُ الحمامُ ولو كوجدى لانبرى
شَجَرُ الأراكِ مع الحمام ينوحُ

وقوله :

وعلى التراب من الدماء مجاسدٌ
وعلى السماء من العجاج مسوحُ

وهو بيتٌ قويٌّ من الوصف ، والمجاسد هى الثياب المصبوغة بالجساد أى الزعفران والعجاج هو الغبار . نعم هو بيت قوى من الوصف الدقيق الخيال وإن قلت كلماته .

وقوله :

وذكيُّ رائحةِ الرياضِ كلامُها
تَبغى الثناءَ على الحيا فتفوحُ

وقوله :

غِرٌّ طلعتَ عليه طلعةَ عارضٍ
مطَرَ المنايا وابلاً ورذاذَا

وقوله :

بمن تقشعرّ الأرضُ خوفاً إذا مشى
عليها وترتجُّ البلادُ الشواهقُ

فتى كالسحاب الجون يخشى ويُرتجى

يُرجّى الحيا منها وتُخشى الصواعقُ

وفى هذين البيتين طابع أبى الطيب فى التهويل .

وقوله :

وانّ الماءَ يجرى من جمادٍ

وإنّ النارَ تخرجُ من زنادِ

وقوله :

كأنها الشمسُ يُعْيى كفَّ قابضه

شعاعُها ، ويراه الطرفُ مقتربا

وهذا من أجمل الأوصاف المستمدّة من صميم الظواهر الطبيعية .

وقوله فى القصيدة ذاتها :

بياضُ وجهٍ يُريكَ الشمسَ حالكةً

ودُرُّ لفظٍ يُريكَ الدُّرَّ مَخْشَلَبَا

وهنا تتجلى مبالغة الصناعة لا وثبة الخيال الشارد .

وقوله :

واذا نظرتَ إلى الجبال رأيتها
فوق السهول عواسلاً وقواضبا

واذا نظرتَ الى السهولِ رأيتها
تحتَ الجبال فوارساً وجنائبا

وعجاجةٍ تركَ الحديدُ سوادَها
زنجاً تبسَّمَ أو قذالاً شائبا

فكأنما كُسِيَ النهارُ بها دُجَى
ليلٍ وأطلعتْ الرماحُ كواكبا

أسدٌ فرائسُها الأسودُ يقودُها
أسدٌ تصيرُ له الأسودُ ثعالبا

وفى كلّ هـذه الأبيات تتراءى أو تتحرك صورٌ أخّاذة من الطبيعة بين جماد وحيوان .

وقوله فى القصيدة ذاتها :

كالبدرِ من حيث التفتَّ رأيتَهُ
يَهْدِي الى عينيكَ نوراً ثاقبا

كالبحرِ يقذف للقريبِ جواهراً
جوداً ويبعث للبعيدِ سحائبا

كالشمس في كبدِ السماءِ وضوؤها
يغشى البلادَ مشارقاً ومغاربا

وقوله :

بفرعٍ يعيدُ الليلَ والصبحُ نيرٌ
ووجهٍ يعيدُ الصُّبحَ والليلُ مظلمُ

وقوله :

ألذُّ من الصهباءِ بالماء ذِكرُه
وأحسن من يسرٍ تلقّاه مُعدِمُ

وأغرب من عنقاه في الطير شكله
وأعوز من مسترفدٍ منه يُحرَمُ

وأكثر من بَعْدِ الأيادي أياديا
من القطرِ بعد القطرِ والوبلُ مثجمُ

وقوله :

أكلتْ مفاخرُكَ المفاخرَ وانثنتْ
عن شأوهنَّ مَطيُّ وصفي ظُلَّعا

وجرينَ جرىَ الشمس فى أفلاكها
وقطعن مغربَها وجُزنَ المطلعَا

وقوله :

وربيعاً يُضاحكُ الغيثُ فيه
زَهَرَ الشكرِ من رياضِ المعالى
نفحتنا منه الصَّبا بنسيمٍ
ردَّ روحاً فى ميتِ الآمالِ

وقوله :

خُذا ماءَ رجلهِ وانضحَا فى الـ
ـمُدْنِ تأمَنْ بوائقَ الزّلزالِ
رجلٌ طِينُهُ من العنبرِ الور
دِ وطينُ العِبادِ من صَلْصَالِ
فبقيَّاتُ طينهِ لاقتْ الماءَ
فصارت عُذوبةً فى الزلالِ
وبقايا وقارهِ عافت النّا
سَ فصارتْ ركانةً فى الجبالِ

وقد وُفِّقَ أبو الطيب فى هذه الأبيات نهاية التوفيق صياغةً وموسيقى وخيالاً وتصويراً بغض النظر عن المبالغة التى قد لا ترضينا .

ومن الأمثلة الأخرى لاستغلال مادة الطبيعة فى مختلف مناحى شعره قوله :

أنا صخرةُ الوادى إذا ما زُوحمتْ
وإذا نطقتُ فإننى الجوزاءُ

وقوله فى القصيدة ذاتها :

لم تَلْقَ هذا الوجهَ شمسُ نهارِنا
إلاَّ بوجهٍ ليس فيه حياءُ

فبأيّما قَدَمٍ سعيتَ الى العُلى
أدُمُ الهلالِ لأخْمَصَيْكَ حِذاءُ

وقوله فى بساطةٍ ساحرةٍ :

نطقَتْ بسؤددك الحَمامُ تَغَنّياً
وبما تجشّمها الجيادُ صهيلاً

وقوله وهو من غريب المعانى :

قرأ نرى وسحابتين بموضع
من وجهه ويمينه وشماله
سفك الدماء بجوده لا بأسه
كرماً لأن الطير بعض عياله !

وقوله :

ليلها صبحها من النار والإصـ
باح ليل من الدخان تمام

وهو وصف بديع لمن شغلوا بالكرم ، فليل التمام هو أطول ليالى الشتاء ، أى أنهم يوقدون النار للقرى ليلاً ونهاراً فيصير ليلهم صبحاً بضوئها ونهارهم ظلمة بدخانها .

وقوله :

هابك الليل والنهار فلو تنـ
ـهاهما لم تجز بك الأيام

وقوله وهو من غريب الوصف الذى كثيراً ما فتن به أبو الطيب:

يستاق عيسهم أنينى خلفها
تتوهم الزفرات زجر حداتها

وكأنها شجرٌ بدَتْ ، لكنّها
شجرٌ جَنَيْتُ الموتَ مِنْ ثمراتِها !

وقوله :

أعزمىَ طال هذا الليلُ فانظرْ
أمنكَ الصُّبْحُ يفرَقُ أن يؤوبَا
كأنّ الفجرَ حِبٌّ مستزارٌ
يُراعِى مِن دُجُنَّتِهِ رقيبَا
كأنّ نجومه حَلْىٌ عليهِ
وقد حُذِيَتْ قوائمهُ الجَبُوبَا
كأنّ الجوَّ قاسَى ما أقاسى
فصار سوادُه فيه شُحوبَا
كأنّ دُجاهُ يَجْذِبُها سهادى
فليس تغيب إلاّ أن يَغيبَا

وهذا من آيات الشعر الوجدانى الذى تمتزج الطبيعة به امتزاجاً دقيقاً .

وقوله من نفس القصيدة نازعاً الى الاغراب فى الوصف :

مَطايا لا تَذِلُّ لمن عليها
ولا يَبغى لها أحدٌ ركوبا
وترتعُ دونَ نبتِ الأرضِ فينا
فما فارقتُها الا جديبا

وقوله أيضاً :

قصَا فالأُسْدُ تفزَعُ من يديه
ورَقَّ فنحن نفزع أن يذوبا
أشدُّ مِن الرياح الهُوجِ بطشاً
وأسرعُ فى النَّدى منها هُبوبا

وقوله مفتنّاً فى الوصف افتنانه البالغ :

وذو لجَبٍ لا ذو الجَناحِ أمامَه
بناجٍ ولا الوحشُ المُثارُ بسالمِ
تمرُّ عليه الشمسُ وهى ضعيفةٌ
تُطالعهُ من بين ريشِ القشاعمِ

اذا ضَوْؤُها لاقَى من الطير فُرْجةً
تدوَّر فوقَ البيضِ مثلَ الدراهمِ

وقوله :

حملتُ اليه من لسانى حديقةً
سقاها الحِجَى سقىَ الرياضَ السحائبِ

وقوله :

ولكنَّ الغيوثَ اذا توالتْ
بأرضٍ مُسَافِرٍ كَرِهَ الغمامَ

وقوله :

أرى الناسَ الظلامَ وأنتَ نورٌ
وإنى منهمو لا لِيكَ عاشِ
بُلِيتُ بهم بلاءَ الوردِ يَلقى
أنُوفاً هنَّ أوْلى بالخشاشِ

وقوله :

سبحانَ مَن خارَ للكواكب بالبُعْـ
ـدِ ولو نُلنَ كُنَّ جَدْواهُ

لو كان ضوءُ الشموسِ في يدِهِ
اصاغه جودُهُ وأفناهُ !

وقوله :

الشمسُ قد حلّتِ السماءَ وما
يحجبُها بُعْدُها عن الحدقِ

وقوله :

يسرْ ! حلَّ حيث تحله النوّارُ !

وقوله :

بدا وله وعدُ السحابة بالرّوى
وصدّوفينا غُلّةُ البلدِ المحْلِ

وهو من مأثور شعره .

وقوله :

إنّ الرّياحَ اذا عَمَدْنَ لناظرٍ
أغناه مقبلُها عن استعجالِه !

وقوله :

ووجهُ البحرِ يُعرَفُ من بعيدٍ
اذا يسجُو فكيف اذا يموجُ ؟!

وقوله الشائق الرائع :

وجيشٍ يثنّى كلَّ طودٍ كأنه
خريقُ رياحٍ واجهت غصناً رَطْبَا
كأنَّ نجومَ الليلِ خافت مُغارَهُ
فمدَّتْ عليها من عجاجتها حُجْبَا !

وقوله :

إذا كان شمُّ الرَّوْحِ أدنى اليكمو
فلا بَرِحَتْني روضةٌ وقَبولُ
وما شَرَقي بالماءِ الاَّ تذكُّراً
لماءٍ به أهلُ الحبيبِ نزولُ
يحرِّمُهُ لَمْعُ الأسنةِ فوقَهُ
فليس لظمآنٍ اليه وصولُ
أما في النجوم السائراتِ وغيرها
لعيني على ضَوْءِ الصباح دليلُ
ألم يَرَ هذا الليلُ عينيكِ رؤيتي
فتظهرَ فيه رقّةٌ وتحولُ

لقيتُ بدرْبِ القلّةِ الفجرَ لَقْيةً
شفَتْ كبدى والليلُ فيه قتيلُ
ويوماً كأنّ الحسنَ فيه علامةٌ
بعثتِ بها والشمسُ منكِ رسولُ

وهى من حسناته الناطقة .

وقوله :

سحائبُ يَمْطُرْنَ الحديدَ عليهِمِ
فكلُّ مكانٍ بالسيوفِ غسيلُ
ورُعْنَ بنا قلبَ الفُراتِ كأنما
تَخِرُّ عليه بالرجال سُيولُ
يطارد فيهِ موجَهُ كلُّ سابحٍ
سواءٌ عليه غمرةٌ ومسيلُ
تراه كأنّ الماء مرَّ بجسمه
وأقبلَ رأسٌ وحدَهُ وتليلُ !

وقوله :

وقد زعموا أنّ النجومَ خوالدُ
ولو حاربته ناح فيها الثوا كلُ !

وقوله :

طلبتهمو على الأمواهِ حتّى
تخوّفَ أن تفتّشَه السّحابُ

وتسأل عنهمو الفلواتُ حتى
أجابك بعضُها وهمو الجوابُ !

وقوله :

شرفٌ ينطح النجومَ بروقَيْـ
ـهِ وعزٌّ يقلقل الأجبالا

وقوله : فانّ فى الخمر مَعْنًى ليس فى العِنَبِ !

وقوله :

كأنّ على الجاجمِ منه ناراً
وأيدى القوم أجنحةُ الفَراشِ

كأنّ جوارىَ المُهَجَات ماءٌ
يعاودها المهنّدُ من عُطَاشِ !

وقوله :

أتاهم بأوسعَ مِن أرضهم
طِوالِ السبيبِ قِصارِ العُسُبْ
تغيبُ الشواهقُ فى جيشهِ
وتبدو صغاراً إذا لم تَغِبْ
ولا تُعْبِرُ الريحُ فى جوِّه
إذا لم تخطَّ القنَا أو تَثِبْ !

وقوله :

لو الفلكُ الدوَّارُ أبغضتَ سعيه
لعوَّقَه شيءٌ عن الدورانِ !

وقوله :

عفيفٌ تروق الشمسَ صورةُ وجهه
فلو نزلتْ شوقاً لحاد الى الظلِّ

وقوله :

فَلْيُرِنا الوردُ إنْ شكا يَدَهُ
أحسنَ مِنْهُ مِنْ جُودِها سَلِمَا

ولا أريد أن أسهب أكثر من هذا استدلالاً على غنى المتنبي بمادة الطبيعة فى شعره ، وقدرته البارعة على استغلالها ، وشعوره الدقيق بمعانى النور والظلّ وبالتجاوب الحيويّ بين الكائنات . ولكن المتنبي المتألّه قدّر أن الطبيعة الجبارة والحياة القوية توأمان ، فعنى بالحياة عناية العبقريّ الفنان ، وجمع بينها وبين مظاهر الوجود الأخرى فى فلسفته العملية المستوعبة ، فاذا بروح الطبيعة فى شعره وسيلةٌ وغايةٌ فى آنٍ ، وبهذا يمتاز المتنبى عن كثيرين من الشعراء الذين يصفون الطبيعة وصفاً لا ينفذ الى صميمها ولا يتناول ما وراء مظاهرها ، وكأنهم أمامها بمعزل تام عن عوامل الحياة . أما المتنبى فطرازٌ مستقلٌّ ومدرسةٌ قائمةٌ بذاتها فى كلّ ما نضحت عنه عبقريته من شعر الطبيعة ، فشغلانه بها شغلانٌ بهموم الحياة وفلسفتها العملية ، ولذلك يعطينا أبو الطيب دائماً ذلك المزيج الفريد الذى عُرِفَ به والذى تُنكر فيه الشاعرية وتُقدَّس فى آنٍ قياساً على نفسية دارسيه ومبلغ تجاوبهم الشعرى معه وعرفانهم لأسرار نفسيته ورموز لغته .

وفى جميع هذه الشواهد التى ذكرتُها تلاحظون حضراتكم أن روح أبى الطيب هى هى متى جاء شعرُه عن طبعٍ لا عن صناعةٍ ، ويختلف بين المتانة والجزالة والسهولة حسب مناسباته وموضوعاته

فهو ليس أسير البداوة ولا غيرها فى شعره وانما هو سلطان طبعه وسالك لغته . ولا نعنى بشىء من هذا نفى تأثير البداوة فى جانب من شعر المتنبى كما أثّرتْ فى غيره من الشعراء ، وإنما ننفى حصر شعره فى عناصرها ، ونريد أن نقرّر أن الصلابة أو الجفوة المحسوسة فى كثير من شعره انما هى ظاهرة نفسهِ السوداوية المزاج ، الصارمة المتطلعة الى مثل أعلى بعيد ، محتقرة كلّ ما حولها من شؤون الحياة المألوفة . واذا أسلس المتنبى أحياناً الى أنس بيئته فهيهات أن تتجلى الجفوة فى شعره . مثال ذلك أوصافه البديعة فى مجالس بدر بن عمار (ص ١٣٠ — ١٣٥ من ديوانه ، طبعة مكتبة صادر ببيروت سنة ١٩٢٦ م .) وحسبنا أن نذكر منها على سبيل المثال هذه الأبيات إذ جلس بدر يلعب بالشطرنج وقد كثر المطر فقال أبو الطيب :

ألم ترَ أيها المَلِكُ المُرجّى
عجائبَ ما رأيتُ من السَّحاب
تشكّى الأرضُ غيبته اليه
وترشف ماءه رشفَ الرُّضابِ !

وهو من شعر الطبيعة الجميل . وقد ذكرتُ لحضراتكم أمثلةً عديدة لاستغلال ومنها السخيف ومنها الرائع ، وقد رأيتم أنّ

بعض هذه النماذج غثّ وبعضها سمين ومنها الرائع ، ولكن كل ما يعنيني توكيده هو أن أبا الطيب في أكثر أوقاته انصرافاً عن الطبيعة على ما يقال لم يكن منصرفاً عنها ، فاتصاله بها دائم على اى حال في صورة من الصُوَر ، وهذا مما يعزّز نظريتي التي ذكرتها في محاضرتي السابقة من الصلة الوثيقة بين الطبيعة وبين كل شاعر مطبوع مهما شغلته شواغل الحياة عن التفرغ لتقديسها .

ولعلكم توافقونني على أن ديباجة المتنبي تكاد تكون واحدة في جميع شعره من حيث القوة والمتانة ، فقد كان نضوجه مبكراً ، وشعر صباه المأثور يكاد لا يُعرف من غيره لولا قرائن المناسبات والموضوعات . وليس معنى هذا أن شعر المتنبي لم يختلف بين الالتواء والاستقامة وبين الشدّة واللين في ديباجته حسب ظروفه ومؤثراته المتباينة ومن بينها حالته الصحية والنفسية ، ولكن غرضي أن عبقريته الشعرية كانت مبتكرة وأن اسفافه النظمي لم يكن الا وليد الصناعة الاضطرارية ، وليس هذا الاسفاف قرين زمن معين بل هو يُلمح في نفس الرائع من قصيده منذ صباه الى كهولته فاذا تخلى أبو الطيب عن الصناعة وأطلق لشاعريته العنان فهو الشاعر المفلق دائماً .

له مِنَنٌ تُفني الثّناءَ كأنّما

به أقسمتْ أن لا يُؤدّى لها شكرُ !

* * *

لا يختلف اثنان فى أن أبا الطيب المزهوّ بعروبته، المتعالى بنفسه، المتطلع الى « ما يجلّ عن التسمية » لم يكن فى أىّ وقت بالذى يصرف ذهنه عن هذه المطامح المستولية عليه . ومع ذلك فقد كان يواجه الطبيعة فى فترات مواجهة الاعجاب الذى لا يلبث أن يذكره بمهامه الكبرى . وأبو الطيب له دائماً النظرة المستوعبة التى تجمع شتات الأشياء والحياة ومتناقضاتها فى لمحة واحدة . أليس هو القائل مخاطباً سيف الدولة وواصفاً قتله الأعداء فوق جبل الأحيدب ببلاد الروم :

نثرتَهم فوق (الأُحَيْدبِ) كلِّه

كما نُثِرَتْ فوق العَروسِ الدراهمُ

ومَنْ غير أبي الطيب يستطيع أنْ يجمع بين وطيس القتال وبهجة العرس فى لمحةٍ واحدةٍ ؟ ! وكم وراء هذا البيت من معانٍ مُشعرةٍ بفلسفة الحياة المتناقضة يفهمها أو يلمحها كلٌّ من يتذوّقه

بنظرةٍ شعريةٍ ، خلافاً لمن لا يعرفون من الشعر سوى لهفةِ العاطفة أو ثورة الخيال .

بهذه النفسية والمزاج وصف أبو الطيب (جبال لبنان) من قصيدة يمدح بها أبا عليّ هرون بن عبد العزيز الأوراجيّ الكاتب :

بيني وبين أبي عَليٍّ مثلُهُ
شمُّ الجبالِ ومِثلُهُنَّ رجاءُ
وعِقابُ لُبنانٍ وكيف بقطعها
وهو الشتاءُ وصيفهنَّ شتاءُ
لبسَ الثلوجُ بها عليَّ مسالكي
فكأنَّها ببياضها سوداءُ
وكذا الكريمُ إذا أقامَ ببلدةٍ
سال النّضارُ بها وقام الماءُ
جَمَدَ القِطارُ ولو رأتْه كما ترَى
بُهِتَتْ فلم تتبجَّسْ الأنواءُ !

وهذا من أبدع ما وُفِّق اليه المتنبي من وصف الطبيعة ، الجامع كذلك للعاطفة سواء أكانت حقيقية أم متمثّلة ، ولإكبار ممدوحه

مع خيالٍ شعريٍّ سليم وموسيقى جــذّابةٍ . ولن ينقص من قدره ما نراه فى هذا الشعر من التهويل ، فهذه هى فطرة المتنبي ولو جاءت من غيره لـكانت متكلَّفةً ، ولـكننا نستسيغها منه لأنها لا تشعرنا بأىّ تــكلفٍ بل هى من صميم نفسه الشاعرة .

ووصف أبو الطيب (بحيرة طبرية) فى احدى مدائحه لعلىّ بن ابراهيم التّنوخى فقال :

لولاكَ لم أترك البحيرةَ ، والغو
رُ دفىءٌ وماؤُهــا شبِمُ

والموجُ مثلُ الفحولِ مُزبدةً
تَهْـدِرُ فيها وما بها قَـطَـمُ

والطّيرُ فوقَ الحَبَابِ تحسَبُها
فُرْسانَ بُلْقٍ تخُونُها اللجُمُ

كـأنّها والرّياحُ تضربُها
جيشا وَغًى هازمٌ ومنهزمُ

كـأنها فى نهارها قمَرٌ
حفَّ به من جنانِها ظُلَمُ

تغنّتْ الطيرُ فى جوانبها
وجادتِ الأرضَ حولها الدِّيَمُ
فهى كماويّةٍ مطوّقةٍ
جُرِّدَ عنها غِشاؤُها الأدَمُ
يَشينها جريُها على بَلَدٍ
تشينهُ الأدعياءُ والقزَمُ

وفى مستهلّ هذه الأبيات يعترف أبو الطيب بتعلقه بالطبيعة لولا شواغل العظمة ، ونظرته الوصفية هى نظرةُ الفيلسوف لا نظرة البدوىّ القحّ ، بعكس البحترى فى وصفه بركة المتوكل فهو وصفٌ خيالىٌّ لطيفٌ ولكنه مجرّدٌ عن روح المتنبي الفلسفية . فاذا دعت الفلسفةُ الصارمةُ فى شعر أبى الطيب الى مثل تلك التعابير فهى ابنتها وليست ابنة البداوة الساذجة ، ويخيل الىّ أن جميع العناصر التى ألفت شاعرية المتنبي تعاونت على ابراز تلك الأبيات الوصفية الرائعة: فهى بدوية حضرية ، وهى مزيجٌ من وصف وفلسفة وعاطفة ، وهى صورةٌ من السخط والرضى ، وهى على بساطتها الظاهرة عميقةُ الاحساس دقيقةُ التعبير . وهذه الصفة الجامعة — كما ذكرتُ قبلاً — هى الصفة الغالبة على شعر أبى الطيب ، فهو أبعد ما يكون

عادة عن البساطة والسذاجة ، وحتى شعره الذى قد يراه السطحيون بعيداً عن الروح الشعرية وليس الا نظماً سخيفاً هو أعمقُ مما يلوح. خذوا قوله مثلا :

فلا مَجْدَ فى الدنيا لِمَنْ قلَّ مالُه

ولا مالَ فى الدنيا لِمَنْ قلَّ مجدُهُ

فان القارىء السطحى قد لا يرى فى هذا البيت غير كلام خبرى لا شاعرية وراءه ، ولكنى ما قرأته الا وتخيَّلتُ توأمين يجوار بعضهما على حالة متماثلة من البؤس ولسان أحدهما يقول : « إنه المجد الذى قلَّ ماله فذاق الهوان » ، ولسان الآخر يقول : « إنه المال الذى قلَّ مجدُهُ فذاق الهوان » . . . هذه هى الصورة التى أتخيلها كلما قرأت هذا البيت لأبى الطيب ، وأنا بتخيلها أتذوَّق هذا الشعر ، وانعدام تخيّلها لدى غيرى يجعله لا يستسيغه ، وكم من أحكام طائشة أساسُها ابتعاد النقاد عن الاندماج فى نفسيات من ينقدونهم ، وهكذا يفوتهم الشعر التصويرى الفلسفى الذى تغنى فيه الاشارة عن العبارة مكتفين بالظاهرة البسيطة مبتعدين عما خلفها من التصوير الشعرى .

* * *

ما ألطفَ أبا الطيّبِ فى تشابيهه الطبيعية حين يقول :

قطف الرجالُ القولَ حين نَبَاتِهِ

وقطفتَ أنت القولَ لمَّا نَوَّرَا

وألطف منه (وصفه لِشعْبِ بوّان) الذى أشرتُ اليه فى محاضرتى السابقة وهو يُعَدّ من الوصف الخالص للطبيعة ولكن نفسه العربية الطموحة لم تشغل به وحده فاستدرك وقال :

إذا غنّى الحَمامُ الوُرْقُ فيها

أجابتْه أغانىُّ القِيانِ

ومَنْ بالشِّعْبِ أحوجُ مِنْ حَمامٍ

اذا غَنّى وناحَ الى البَيَانِ

وقد يتقاربُ الوصفانِ جدّاً

وموصوفاهُمَا متباعدانِ

يَقولُ بِشِعْبِ بَوّانِ حِصَانى :

أعن هذا يُسَارُ الى الطِّعَانِ ؟ !

أبوكم آدَمٌ سَنَّ المعاصى

وعلّمكم مفارقةَ الجِنَانِ

فأين أين البحترى على جلالة قدره من هـذه الروح الفلسفية التى لا تنسبها مشاهدُ الطبيعةِ التغلغلَ فى صميمها ؟

وعلينا أن ننتقل الى وصفه (النيروز) فى أرض فارس فى أبيات قليلة ـ فيها كلّ الغِنى ـ من قصيدةٍ يهنىء بها ابنَ العميد أبا الفضل محمد بن الحسين وزير ركن الدولة :

جاءَ نيروزُنا وأنتَ مُرادُهْ
وورَتْ بالذى أرادَ زنادُهْ
هـذه النظرةُ التى نالها منـ
ـكَ الى مثلها مِن الحولِ زادُهْ
ينثنى عنكَ آخرَ اليومِ منه
ناظرٌ أنتَ طرفُه ورقادُهْ
نحن فى أرضِ فارسٍ فى سُرورٍ
ذا الصباحُ الذى ترَى ميلادُهْ
عظَّمَتْهُ ممالكُ الفُرْسِ حَتى
كلُّ أيامِ عامِهِ حُسَّادُهْ

ما لبسنا فيه الأكاليلَ حتى

لبستها تلاعُهُ ووهَادُهْ

والمتنبي يكتفي بخطوطٍ قليلةٍ لرسم الصورة التي يريدها ، وحسب حضراتكم أن تتأمّلوا في البيت الأخير الذي يشعركم فوراً بمختلف الأصباغ والرياحين وبصورة التمجيد التي تجلت فيها الطبيعة كما تجلى فيها أبناؤها الفرحون بها ؛ وقد حصر دلالته على ذلك في اشارته الى « لبس الأكاليل » .

وما دمنا قد أشرنا الى النيروز فلا يجوز أن تفوتنا الاشارة الى وصف المتنبي (الربيعَ) ـ ربيع المسافر ـ من قصيدة يودّع بها ابن العميد عند مسيره الى عضد الدولة . قال :

كفانا الربيعُ العيسَ مِنْ بركاتِهِ

فجاءتْه لم تَسْمعْ حُدَاءً سوى الرَّعْدِ

إذا ما استجبنَ الماءَ يَعْرِضُ نفسه

كرِعْنَ بِسبْتٍ في إناءٍ من الوَرْدِ

كأنّا أرادتْ شُكرَنا الأرضُ عنده

فلم يُخْلِنا جوٌّ هبطْناهُ مِنْ رِفْدِ

لنا مَذهَبُ العُبّادِ في تَرْكِ غيرِهِ
وإتيانِهِ نبغي الرغائبَ بالزُّهْدِ
رَجَوْنا الذي يرجون في كلّ جنّةٍ
بأرجانَ حتى ما يئسنا من الخُلْدِ !

وفي هذه الأبيات يقدّم لنا المتنبي نماذجَ من شعره الأصيل ، ولكنْ له نفس طابعه المألوف من الاكتفاء بالاجمال الذي لا ينافي التغلغل الى روح موضوعه ؛ ومن الجمع بين أكثر من غرضٍ واحدٍ في تعبيره .

وقد صحبَ المتنبي الأمير أبا محمد فأتحفنا بأوصاف طبيعية شائقة كقوله في وصف كفرديس :

وزيارةٍ عن غيرِ مَوْعِدْ
كالغُمْضِ في الجَفْنِ المُسَهَّدْ
مَعَجَتْ بنا فيها الجيا
دُ مع الأمير (أبي محمدْ)
حتى دخلنا جنّةً
لو أنّ ساكنها مُخَلَّدْ

خضراء حمراء التّرا
بِ كأنّها في خدّ أغيَدْ
أحببتُ تشبيهاً لها
فوجدتُه ما ليس يُوجَدْ
وإذا رَجَعْتَ الى الحقا
ئقِ فهي واحدةٌ لأوحَدْ !

وقال فيه أيضاً :

ووقتٍ وَفَى بالدهرِ لى عند سيّدٍ
وَفَى لى بأهليهِ وزاد كثيرَا
شربتُ على استحسانِ ضوءِ جبينهِ
وزهرٍ ترَى للماء فيه خريرَا
غدا الناسُ مثليهم به لا عدمتُهُ
وأصبح دَهْرى فى ذرَاهُ دُهُورَا !

وتعـذّرَ المرعى على مُهر أبي الطيب فوصف ذلك كما وصف الثلج بأرجوزةٍ بديعةٍ من أحسن شعر الطبيعة فى معانيها وهى التى يقول فى مطلعها :

ما للعروجِ الخُضْرِ والحدائقِ
يشكو خَلاهَا كثرةَ العوائقِ
أقام فيها الثلجُ كالمرافقِ
يَعْقِدُ فوقَ السِّنِّ ريقَ الباصقِ
ثم مَضَى ، لا عاد مِنْ مُفَارقِ
بقائدٍ مِن ذوْبِهِ وسائقِ ! !

وهى جديرة بدراسة حضراتكم ، ففيها شواهد كثيرة على ما ذكرتهُ من خصائص شعر الطبيعة لدى أبى الطيب . ومن هذا القبيل أرجوزته فى وصف الصيد التى يقول فى مطلعها :

وشامخٍ مِنَ الجبال أقْوَدِ
فَرْدٍ كيأفوخِ البَعيرِ الأصْيَدِ
يُسارُ مِنْ مَضيقهِ والجَلْمَدِ
فى مِثْلِ مَتنِ المَسَدِ المُعَقَّدِ

ومن هذا القبيل أيضاً أبياته فى وصف بازٍ أطلقه أبو العشائر على حجلة فأخذها ، ومطلعها :

وطائرةٍ تتبعُهَا المنايا
على آثارِهَا زَجِلُ الجَنَاحِ
كأنَّ الريشَ منه في سهامٍ
على جَسَدٍ تجسَّم مِنْ رياحِ !

وليس بأقلّ منها روعة تعليقه على وصف أحد الشعراء لبركة أبي العشائر إذ قال أبو الطيب من أبيات :

لئن كان أحسنَ في وَصْفِهَا
لقد فاته الحُسْنُ في الوصفِ لكْ
لأنكَ بَحْرٌ ، وإنَّ البحارَ
لتأنفُ مِنْ حال هذي البِرَكْ !

ويجب أن لا ننسى أن وصف الجواد والأسد وآفات الطبيعة كالملاريا هو من صميم شعر الطبيعة ، كما أن وصف الكروان أو البحر أو العاصفة هو كذلك من شعر الطبيعة الصميم ، وقد أجاد أبو الطيب في كل ذلك إجادةً يخيّل الينا أنه ما بعدها إجادة . أليس هو القائل في وصف جواده :

ويومٍ كليلِ العاشقين كمَنْتُهُ
أراقبُ فيه الشمسَ أيّانَ تَغْرُبُ
وعَينى الى أذنىْ أغرَّ كأنه
من الليلِ باقٍ بين عينيه كوكبُ
له فَضْلَةٌ عن جِسْمهِ فى إهابهِ
تجىء على صَدْرٍ رحيبٍ وتذهبُ
شَقَقتُ به الظلماءَ أدنى عِنانَهُ
فيطغَى وأرخيهِ مراراً فيلعبُ
وأصرَعُ أىَّ الوَحْشِ قفَّيتهُ به
وأنزلُ عنه مِنْلَهُ حين أركبُ
وما الخيلُ إلاّ كالصديقِ قليلةٌ
وإنْ كثرتْ فى عينِ مَنْ لا يجرّبُ
إذا لم تُشاهِدْ غيرَ حُسْنِ شياتها
وأعضائِها فالحسنُ عنكَ مغيَّبُ !

وكأنه يعرف أسرار نفسية الجواد أدقّ معرفةٍ وله الخبرة كل الخبرة بدقائق الجمال فى صفاته وحياته .

ويقول في وصف الأسد مادحاً فروسية بدر بن عمّار :

أمعفّرَ الليثِ الهزَبْرِ بسوْطِهِ
لمنْ ادّخَرْتَ الصارمَ المصقولا ؟!
وَقَعتْ على الاردُنِّ منه بليّةٌ
نُضِدَتْ بها هامُ الرّفاقِ تلولا
وَرْدٌ اذا وَرَدَ البحيرةَ شارباً
وردَ الفراتَ زئيرهُ والنّيلا
متخضّبٌ بدَمِ الفوارسِ لابسٌ
في غِيلِهِ مِنْ لِبْدَتَيْهِ غِيلا
ما قُوبِلَتْ عيناه إلا ظُنَّتا
تحت الدُّجَى نارَ الفريقِ حُلولا
في وَحْدَةِ الرُّهبانِ إلا أنه
لا يعرف التحريمَ والتحليلا
يطأُ الثّرَى مترفّقاً مِنْ تيهِهِ
فكأنه آسٍ يجُسُّ عليلا

وتَرُدُّ عُفرتَهُ الى يأفوخِهِ
حتى تصيرَ لرأسِهِ إكليلا

ودارسُ هذا الشعر يحار فى قوته المتتابعة ،وفى خياله الجرىء ، وفى نظرات الشاعر المستوعبة ، وفى خبرته المتنوّعة التى تجانس بين ما يصف وبين شتى تجاريبه . وانى كطبيبٍ اعجب جدّ الاعجاب بقول أبى الطيب :

يطأ الثرى مترفّقاً مِن تيهِهِ
فكأنّه آسٍ يجسُّ عليلاً ا

وكأنما أبو الطيب تمرّ أمامه صُور الحياة المتنوّعة مرّاً سريعاً كمرور السينما فيخطف من لحاتها ما يخطف حسب مناسباته ويمزجه بأوصافه الجبّارة مزجَ الحاذق الخبير ، فيحيرنا باتساع آفاقه وبتعمق نظراته وبكل مزايا العظمة الفذّة للشاعر العبقرى .

وإن نعجب فلنعجب أولاً وأخيراً بوصفه المدهش لنوبة الملاريا التى أصابته ، وهو وصفٌ شعرى من أرقى طراز يمتزج بالفلسفة العاطفية أبرعَ امتزاجٍ . أليس هو القائل :

وزائرتى كأنّ بها حياءً فليس تزور الا فى الظّلامِ
بذلتُ لها المطارفَ والحشايا فعافتها وباتتْ فى عظامى

يَضيقُ الجلدُ عن نفسي وعنها ... فتوسعُهُ بأنواعِ السَّقامِ
كأنَّ الصبحَ يطردُها فتجري ... مدامعُها بأربعةٍ سِجامِ
أراقبُ وقتَها من غير شوقٍ ... مراقبةَ المشوقِ المستهامِ
ويَصدُقُ وعدُها والصدقُ شرٌّ ... اذا ألقاكَ في الكُرَبِ العِظامِ
أبنتَ الدهرِ عندي كلُّ بنتٍ ... فكيف وصلتِ أنتِ من الزِّحامِ؟!
جَرَحْتِ مجرَّحاً لم يبقَ فيه ... مكانٌ للسيوفِ ولا السهامِ!

* * *

وصفوة القول : ان شعر المتنبي في الطبيعة لا يمكن انكاره فهو يبلغ زهاء ثلثمائة بيت، ومعظمهُ شعرٌ صادقٌ وأقلّهُ نظمٌ صناعيٌّ تقليديٌّ ، وجميعه عظيم الدلالة في لجوئه الى الامّ الطبيعة لتسعفه بأروع تشابيهه واستعاراته . فالطابعُ الغالبُ على شعر الطبيعة عنده هو الطابعُ الوصفيُّ ، وهو في معظم الأحوال يتزاوج وفلسفة الحياة فاذا كان خالصاً لم يكن دون الشعر الوصفي الخالص لشعراء الطبيعة المعدودين كالبحتري وابن الرومي وابن خفاجة وابن حمديس ، وإن انفرد المتنبي وابن الرومي بالدسامة المعنوية . ومن الإنصاف أن يقال إنه بالرغم من اشتغال المتنبي بمطالب الحياة العملية وكفاحها المستمر وانصرافه الى المجد والسؤدد فلم يكن كلّ هذا بالذي يصرفه

عن جاذبية الطبيعة ، ولئن أقلّ فى هذا الباب فان شعره يمتاز بتركيز ساحر تقوم فيه الإشارة الفنية القوية مقامَ الأبيات لغيره . فهو غنىّ كلّ الغنى بجوهر شعره ، وإن لم نظفر منه نسبياً إلا بالقليل من فرائد شعر الطبيعة .

يمتاز شعر المتنبي بحيوية منقطعة النظير فى طابعها الخاص ، طابع الشخصية الحكيمة الجبّارة التى أملته ، وقد استفاد من جميع تجاربه فى حياته ـ من طفولته الى كهولته ـ وكان لكل ذلك الأثر الواضح فى شعره ، ولكنه لم يكن أسيراً لعامل واحد منها ، اللهمّ الا اذا عددنا تطلعه الدائم الى نهايات المجد هو ذلك العامل . كان المتنبي قوىّ الرجولة ، وهذه الرجولة الأصيلة فيه بل ذلك التألّه الذى نستشفه من مثل قوله :

يقولون لى : ما انتَ فى كل بلدةٍ

وما تبتغى ؟ما ابتغى جَلّ أن يُسمَى!

هو الذى أبعد معظم شعره عن الليونة والرقة ، فهذه ظاهرة ذاتية وليست صورةَ من تفاعل البيئة أو حياته الخاصة .

يقول أبو الطيب فى الشعر وصحته :

إنَّ بعضاً من القريضِ هُذَاءٌ
ليس شيئاً ، وبعضُه أحكامُ
مِنْهُ ما يجلبُ البراعةَ والفضـ
ـلُ ، ومنه ما يجلبُ البرسامُ !

وقد يُسَرُّ كثيرون من المتأدبين بالشعر المائع لحلاوة موسيقاه، ومنهم مَنْ يتخيل أن شعر الطبيعة يجب أن لا يعدو ذلك ، أمّا الأدباء الناضجون الذين تخدعهم الظواهر المهفهفة البرّاقة فيلتمسون عند المتنبي العصارة الشعرية الناضجة ، والخلاصة الحلوة المرة ، غذاءً للأرواح والأفهام ، وهم يستلهمونه سرَّ الطبيعة الجبارة اذا لم يسعفهم معظم الشعراء الآخرين بأكثر من أوصاف مليحة لظواهرها . وهم بعد كل هذا يطمئنون كل الاطمئنان الى وضع المتنبي في ذروة المجد الشعرى ، ويعدّون في إيمانٍ صادق ديوانه الخالدَ انجيلاً للأدباء .

فهرس

صفحة		صفحة	
المتنبي ابن الطبيعة	٣	فلسفة الحياة والتعابير	٥
قوة المتنبي الفنية	٤	أدب القوة والسيرمان	٦
تأثير البادية	٥	الطبيعة في شعر صباه	٧

صفحه

حبه للتركيز والدسامة ٨
تشابيهه الطبيعية ٩
الحياة والطبيعة توأمان ٣١
ديباجة المتنبي ٣٣
نظراته المستوعبة ٣٤
وصفه جبال لبنان ٣٥
وصفه بحيرة طبرية ٣٦
مزج الوصف بالفلسفة والعاطفة ٣٧
وصفه شعب بوّان ٣٩
وصفه النيروز ٤٠
وصفه الربيع ٤١
وصفه كفرديس ٤٢
أرجوزته فى وصف الثلج وتعذر المرعى ٤٤
وصفه الجواد ٤٦
« الاسد ٤٧
« الملاريا ٤٨
حيوية شعر المتنبي ٥٠

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦	٩	لانها	لأنها
٨	١	سنة	سنه
٩	١٧	رصفاً	وصفاً
١٤	١٠	فحطان	قحطان
٢١	١٢	ادُمُ	أُدُمُ
٢٢	١٣	سهاها	ساها
٢٩	٩	الفلواتُ	الفلواتِ
٣٢	١٧	لاستغلال ومنها	لاستغلال الطبيعة ومنها
٣٣	٧	دباحة	ديباجة